آثار "الصهيونية" داخل اليسار الاميركي والأوروبي

يطرح علاء الدين السامرائي وعبدالجبار علوان في الدراسة التي تنشرها « الهدف » فيما يلي ، وجهة نظر تحتاج ، في رأي « الهدف » الى المزيد من التأمل والبحث والتمحيص ، وكذلك الى تحليل جدلي يغطي مجموع العوامل التي تتفاعل وتنتج الحالة التي يعالجها المقال ، والتي يطلق عليها اسم « الشوفينية اليهودية » جديدة لخصائص اليهودية(١) والتي لها تأثير على منظمات الشوفينية اليهودية(١) والتي جمعتها الاحزاب والتجمعات اليسارية بما فيها الحركات الشيوعية في اميركا واوروبا . اننا اذا اغفلنا حقيقة الشوفينية اليهودية ومدى تأثيرها على الراي العام اليساري اليهودية ، سيكون ماجزين عن تفهم هذه المسالة ، وسنبقى في متاهات الركض وراء « الراي العام العالمي » وسيبقى تلوم انفسنا على « تقصيرنا الاعلامي » او الكلام عن « عبارات لا مسؤولة » ، الى اخر ذلك من السطحيات .

مع تاريخ الصهيونية

ان تاريخ الحركة الصهيونية ، منذ اوائل فجيعها كحركة سياسية في اوروبا ، يتصف بوجود احزاب وتجمعات ووجهات نظر متباينة حول مسائل ايديولوجية داخل الحركة نفسها . ان الاختلافات الايديولوجية في الحركة الصهيونية عكس ، بصورة عامة ، التيارات الايديولوجية في اوروبا حين ظهور الصهيونية . ان هذه الاختلافات داخل الحركة الصهيونية لا تزال مستمرة الى الوقت الحاضر ، حيث تتجسد في معظم الاحزاب السياسية في فلسطين المحتلة . فهنالك الاحزاب الصهيونية « اليمينية » واحزاب « الوسط » وكذلك الاحزاب الصهيونية « اليسارية » فقد حاول بعضها التوفيق بين الصهيونية والماركسية وبين اهم الحركات « اليسارية » الصهيونية الاولى كان حزب « فوعالي صيون » (اي حزب عمال صهيون) الذي يرجع اصل تكوينه الى اوائل القرن العشرين ، ولكن بالرغم من الاختلافات الايديولوجية لهذه التجمعات الصهيونية ، فان جميعها بدون استثناء تتفق على شيء اساسي واحد الا وهو اعتبار اليهود كبير وباديوار قيادية في هذه المنظمات . وقد استغلت هذه العناصر ظروف الحرب العالمية الثانية ، وما صاحبها من الاضطهادات العنصرية التي مارسها النازيون ضد كثير من الشعوب والجماعات ، لتعور في اذهان العالم ان المغزى التاريخي الوحيد تقريبا للفترة النازية كان اضطهاد اليهود ، وتناثر الشوفينية اليهودية ، فساقت معظم الحركات التقدمية في اوروبا واميركا نحو تاييد المشروع الصهيوني في فلسطين ومن اجل فهم هذه الظاهرة ، من الضروري الرجوع الى بعض التحليلات التي حاول هؤلاء « الماركسيون » تقديمها تبريرا لتاييدهم لمشروع اقامة الدولة الصهيونية .

فقد كتب وليام ز. فوستر في عام ١٩٥٢ (وكان فوستر عندئذ رئيس الحزب الشيوعي الاميركي) ما يلي : « ان الحكومات العربية في الشرقين الادنى والاوسط ، والتي يسيطر عليها ملاكو الارض الرجعيون ، وتحت سيطرة الامبريالية البريطانية ، عارضت بعنف انشاء دولة يهودية في فلسطين . وبريطانيا العظمى ، حرصا منها على استمرار قبضتها على المنطقة بكاملها ، ايضا عارضت مثل هذه الدولة ، والامبريالية الاميركية ، في سعيها للسيطرة على البريطانيين وكذلك على العرب واليهود ، تراوح موقفها بين التاييد والبرود . ان الصديق الحقيقي للشعب اليهودي في كفاحه من اجل الحرية الوطنية كان الاتحاد السوفياتي الذي ساند بشدة تاسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين . وفي النهاية قامت الجماهير اليهودية نفسها بحسم المسالة بتاسيس جمهورية اسرائيل في مايس ١٩٤٨ . وبعد ذلك دافعوا عن حكومتهم ، واسلحتهم بايديهم ، ضد هجمات الحكومات العربية الموحى بها من قبل بريطانيا » (فوستر « تاريخ الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة » طبعة نيويورك ، المطبعة الامبية ، ١٩٥٢ ، ص٤٨٠) (ج) .

ولكن هذا التاييد لقيام اسرائيل لا يعتبره وليام فوستر تاييدا للحركة الصهيونية ، بل تاييدا « للجماهير اليهودية » . لان مفهوم « الصهيونية » بالنسبة لفوستر هو انها الحاح البعبيي او المحافظ للحركة الصهيونية . اي ان « الصهيونية » التي يتكلم عنها فوستر هي ايديولوجية الزياء اليهود ، ولهذا نراه يقول : « وفي داخل الولايات المتحدة ، حيث يوجد حوالى خمسة ملايين يهودي ، اصبحت القضية الفلسطينية امرا سياسيا مهما . وقد ابدت حكومة ترومان ، بصورة غير جدية ، الدولة اليهودية المقترحة . ان اغنياء اليهود — اي الصهابنة — بالتحالف مع الاشتراكيين الديمقراطيين اليمينيين ، سيطروا على الحركة الموالية لاسرائيل في الولايات المتحدة .. وقد لعب الحزب الشيوعي دورا نشيطا في كل هذا التفال ، وكافح بصورة عامة من اجل انشاء الدولة الجديدة .. وقد ذكر الحزب على قيادة العمال اليهود للحركة ، سواء في فلسطين ، ام في الخارج .. » (نفس المصدر ص ٤٨ — ٤٨١) ولهذا فان فوستر قد اعتبر حرب ١٩٤٨ حربا « تحريرية » قامت بها « الجماهير اليهودية » ضد الاستعمار !!

اما الشوفينية اليهودية فتظهر بجلاء اكثر في كتاب عنوانه « اسرائيل في ازمة » يقلم احد قادة الحزب الشيوعي الاميركي ا. ب. ماغيل ، حيث ان شوفينيته لم يكن من المستطاع اخفاءها تحت جميع الشعارات والعبارات « الماركسية » . دعونا ننصت الى ما قال ماغيل : « قابلت اسرائيل لاول مرة على متن الباخرة التي نقلتني الى هنالك . لقد كان ابحارنا في نيسان ، وكان الجو عاصفا بعض الشيء . والباخرة السوفياتية « روسيا » .. كانت تحمل مجموعة من الفلسطينيين ، ومن الذين على وشك ان يصبحوا فلسطينيين ، الى العاصفة الاكبر التي تعصف بوطنهم وبدولتهم التي لم تكن قد ولدت بعد .. ان الروح المحركة للمجموعة كان علامة شبان من هاشومير هاتصعير .. احدهم كان اميركيا في السابق ، والاخر كان لاجئا من المانيا والثالث كان يهوديا بولونيا في السابق ، والان تلاقتهم جميعا فلسطينيون ، وعن قريب سيعجبون اسرائيليين » (ص٩) (د) .

وبعد هذه الصورة الرومانتيكية يصل صاحبنا القائد « الشيوعي » الى ميناء حيفا ، فيقول : « ان اقوى انطباعاتي عن اسرائيل كان عن شعبها . ففي هذه القطعة الصغيرة من الارض ، يهود من امم كثيرة في حالة التحول الى امة واحدة » (ص١١) .

ثم ينتقل ماغيل الى وصف « حرب التحرير » على حد قوله (اي معارك ١٩٤٨) فيقول : « لقد وصلت الى بلد في حالة حرب .. في ارض العبريين القدماء ، تظهر الى الوجود دولة عبرية حديثة ، وفي اثناء ولادتها بالذات ، يفرض عليها ان تحارب من اجل البقاء . لقد قتل ستة ملايين يهودي ، ولكن امة يهودية جديدة ، عددها اقل من مليون نسمة ، تؤكد حقها في الحياة ولتكون حرة الى الابد .. » (ص١٤) .

وليس ذلك فحسب ، بل ان ماغيل يقارن قيام الدولة الصهيونية بحرب الاستقلال الاميركية ، فيقول : « اسرائيل ، مثل الولايات المتحدة ، ولدت من خلال الدماء . وكما حدث سنة ١٧٧٦ ، نهضت ميليشيا المواطنين للدفاع عن الوطن ودحرت اعداد متفوقين جدا بالعدد والسلاح . ومرة اخرى ، كما كان الحال في نورثنا ، لعبت المساعدات الخارجية ، وهذه المرة من الاقطار الاشتراكية والاقطار المتحولة نحو الاشتراكية ، لعبت دورا رئيسيا لتحقيق النصر والحرية » (ص١٨) .

وهكذا فان انشاء اسرائيل لم يكن عملا استعماريا ، ولم يكن نتيجة المؤامرات الامبريالية كما يعرفه كل من له اي المام بالقضية الفلسطينية بل كان نتيجة « حرب تحريرية » شنتها « الجماهير اليهودية » ، حيث يخبرنا ماغيل ان « يهود فلسطين كانوا ينفذون التقسيم بانفسهم وبدمائهم .. وقد كان الشعب اليهودي يخوض حربا رائعة من اجل التحرر الوطني . وامام الانجازات الرائعة التي لا يمكن ان تتراجع وامام روعة ذلك النضال .. برهنت احتيالات اعظم قوتين امبرياليتين في العالم بانها لا تجدي » (ص ٢٨) .

لكن من الضروري الاشارة الى ان ماغيل ، بالرغم من حماسه الكبير لانشاء الدولة الصهيونية فانه لم يكن جاهلا بالتناقض بين « ماركسيته » والصهيونية ، حيث يقول ان « هرتزل ، بالطبع ، لم يؤسس الدولة اليهودية ، بل كان ذلك من صنع الشعب اليهودي .. ومع ذلك فان اسم هرتزل مرتبط بشكل لا ينفصم مع اسرائيل ، وبالرغم من ان النضال من اجل ايجاد الدولة اليهودية يمثل النقيض الكثير من مبدئه » (ص٤٥)

وفي اوروبا الشرقية

اما الصهيونية اليهودية ونظرا لوجود الشوفينيين اليهود في كثير من الاحزاب اليسارية في اميركا واوروبا، ولاحتلالهم مناصب قيادية حساسة في هذه الاحزاب ، فقد انعكست هذه الشوفينية في سياسات هذه الاحزاب ، هذا وقد تعاونت بعض المنظمات الصهيونية ، وخاصة «اليسارية» منها مع الاحزاب الاشتراكية والشيوعية في شرق اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، مستغلة ، كما بينا ، المناخ النفسي الذي خلقه الاحتلال النازي ، وقد تظاهرت هذه المنظمات الصهيونية بالتاييد لبرامج الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ، بالرغم من ان البرنامج الصهيوني بغض النظر عن « بساريته » او « يمينيته » يتناقض بطبيعته مع الاهتمام بالاحداث السياسية في اي بلد ، الا بقدر ما تؤثر تلك الاحداث على الهدف الصهيوني الاساسي ، وهو قيام اسرائيل .

وبعبارة اخرى ، فقد تظاهرت هذه الحركات الصهيونية « اليسارية » في بلدان اوروبا الشرقية بالتاييد للتيار القدمي في هذه البلدان من اجل تحويل العداء للنازية الى عطف على الصهيونية ، ففي بولندا ، مثلا ، تاسست سنة ١٩٤٤ « لجنة التحرير الوطني » التي ضمت بجانب الشيوعيين والاشتراكيين وغيرهم ، ضمت الدكتور اميل سومرشتين الصهيوني ، رئيس اللجنة المركزية اليهودية في بولندا ، وهو الذي مثل الصهاينة البولنديين في المؤتمر الصهيوني العالمي المنعقد في لندن في تموز ١٩٤٥ ، وقد كان سومرشتين رئيس قسم التموينات الحربية في لجنة التحرير الوطني (٨) .

هذا وقد حصلت المنظمات اليهودية الاجنبية على امتيازات خاصة في بولندا كالاعفاء من دعامة مهمة لمواجهة « التغلغل الشيوعي » الخ .

فالسؤال الاساسي اذن : ما هو مصدر التاييد « اليساري » لاسرائيل والصهيونية ؟

ان معظم التفسيرات لهذه الظاهرة تعزيها الى « الشعور بتانيب الضمير » لدى الراي العام العالمي لاضطهاد الذي تعرض له اليهود تحت الحكم النازي ، او « عدم فهم » القضية الفلسطينية ، او ان بعض السياسيين العرب تفوهوا « بعبارات لامسؤولة » تجاه الصهاينة مما ادى الى « تنفير » الراي العام اليساري والليبرالي ، الخ ..

ان هذا التفسيرات لا تفي بالغرض .

فاذا كان الموضوع موضوع « تانيب ضمير » فلماذا لا يشعر الامريكيون(٢) بمثل هذا «التانيب» تجاه الشعب الياباني نتيجة قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية ؟ مع العلم بان ما حدث لليهود في اوروبا كان على ايدي النازيين الالمان وان « تانيب الضمير » لا محل له في الغرب ، واذا كانت المسالة هي « العطف الانساني » على ضحايا هتلر ، فان الهتلريين لم يقتلوا اليهود فقط ، بل قتلوا ملايين من غير اليهود ، فقد قدم الاتحاد السوفياتي ما يقرب من العشرين مليون قتيل في حربه ضد النازية ، فلماذا لا يشعر اصحابنا في الغرب ب « تانيب الضمير » ؟ كما ان الاضطهاد النازي قد شمل جماعات كالفجر وبعض الاقليات الدينية الاخرى، وكان النازيون يعتبرون الشعوب السلافية جميعا (البولنديين والروس الخ ..) شحوبا « راطئة » وقد ابيدت من هذه الشعوب الملايين تحت الحكم النازي ، ولكن المغزى التاريخي للحرب العالمية الثانية وللفترة النازية يكاد ان ينحصر ، في الراي الغربي ، باضطهاد اليهود .

اما قضية « عدم فهم » المسالة الفلسطينية ، فهذا « عذر اكبر من الذنب » . فاذا كان ذلك حقيقة (وهل يمكن ان نكون ذلك بحقيقة على مستوى المثقفين !!!) ، فمن منع تفهم المسالة الفلسطينية ؟ ان هؤلاء « اليساريين » في اميركا واوروبا باستطاعتهم ان يتخذوا موقفا معينا وبصورة آنية تجاه ما يحدث في اية بقعة من بقاع المعمورة ، ولكنهم « لا يفهمون » القضية الفلسطينية بعد اكثر من عشرين عاما على الاغتصاب !

اما الكلام عن « تنفير » هؤلاء السادة بسبب « عبارات لا مسؤولة » فهو اكثر سخافة ، حيث ان العنف والتشريد والاضطهاد الوحشي والذبح الذي تعرض له شعب فلسطين لم يكن كافيا « لتنفيرهم » من الصهيونية ، فكيف من الممكن « تنفيرهم » وتعكير مزاجهم ببعض العبارات « اللامسؤولة » !!!

موقف ستالين

ان السؤال التالي يفرض نفسه : ما هو تفسير موقف الاتحاد السوفياتي في تلك الفترة للتقسيم ومساندته لقيام اسرائيل ؟

ان بعض التفسيرات المتطلقة من مواقف تروتسكية او من مواقع « مكافحة الستالينية » او تيارات سياسية مشابهة تعزي ذلك الى شخص يوسف ستالين وتتهمه بالانتهازية و من وحي ستالين(٣) . ان هذا التفسير « يقلل حقيقة ان ستالين في كتابه منذ ١٩١٢ (المسالة القومية)) دحض الاسس الرئيسية للصهيونية كما وان تاييد الاتحاد السوفياتي لقرار التقسيم كان مفرا للاتحاد السوفياتي كدولة ، ولما كان عنه من اضطهاد القوى التقدمية في البلدان العربية هذا ومن السذاجة ان يتصور الانسان ان اي شخص ، مهما كان نفوذه ، بامكانه ان يتصرف تصرفا مطلقا وكيفيا في دولة عدت كالاتحاد السوفياتي ، او ان ستالين لم يكن

(١) « الهدف » : باعتقادنا ان التعميم على هذه الصورة يصعب وجهة النظر ، لان بعض ذلك التحول كان عميقا وجديرا ويزداد تجذرا ، لاعتبارات طبقية وايديولوجية مع مضي الايام .

(٢) « الهدف » : بصورة عامة هذا الوضع ، لكن يجب الادراك من ان ذلك التحول(١) ما هو الا تحول سطحي فرضه على بعض « اليساريين » عجزهم الكامل عن تبرير الارتباط العضوي الواضح بين اسرائيل والامبريالية ، ولكنهم مع ذلك استمروا على التمسك بمعطيات صهيونية اساسية حتى في معرض « تاييدهم » للثورة الفلسطينية — كما سنشرح ذلك بالتفصيل في مكان اخر من هذه المقالة .

اننا اذ نقول ان هنالك ارتباطا عضويا بين اسرائيل والامبريالية ، لا نعني بان اسرائيل مجرد خادم مطيع للاستعمار كما هو الحال مثلا بالنسبة لحكومة سايغون في جنوب فيتنام . ان الحركة الصهيونية ما هي الا حليفة للامبريالية وخاصة الاميركية ، كما وان هنالك تبادلا في التاثير بين الامبريالية والحركة الصهيونية ، وان للصهيونية مطامحها الامبريالية الخاصة وهذا بدا يتضح يوما بعد يوم . فاذا كان الامر كذلك فكيف من الممكن لمثل هذه الحركة الاستيطانية المعتمدة على مفاهيم عنصرية ومرتبطة منذ نشوئها بالتحالف الوثيق مع الاستعمار ، كيف من الممكن لها ان تتمتع بتاييد اليسار بما في ذلك الاحزاب الشيوعية الاوروبية ؟ وكيف كان من الممكن للاتحاد السوفياتي بالرغم من تاريخه الايديولوجي المعادي للصهيونية ، ان يكون احد القوى الاتي لولا تاييدها لكان من المستحيل قيام اسرائيل بمثل هذه السهولة ؟

وقد قال الكاتب البريطاني « ايسان غلمور » عن هذه الظاهرة في مقالة نشرت في مجلة « سيكتيتور » البريطانية انه « من السهل فهم الصداقة التقليدية لليمين تجاه الصهيونية ، فوعد بلفور كان منسجما مع سياسة تقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا .. ولهذا فان كبار الامبرياليين البريطانيين ، تشرشل ، واميري، وملنر ، كانوا جميعا صهاينة .. (اما) ارتباط الراي الليبرالي واليساري بالصهيونية ، حتى لو اخذنا بنظر الاعتبار العطف والشعور بالهلع الطبيعيين نتيجة الاضطهاد النازي ، فانه اقل انسجاما » (عدد ٦٨٨٧ في حزيران ١٩٦٠) .

ان الاسباب التي تقدمها الاوساط اليمينية لشرح مساندتها لاسرائيل معروفة وسيطة تتلخص في ان اسرائيل دولة « ديمقراطية » على الطراز الغربي ، وانها حليفة للغرب ، وانها دولة « متقدمة » في وسط بحر من « التاخر » ، وانها

« استحصل على حريتك اذا جعلت عدوك يعلم بانك ستفعل اي شيء في سبيل حريتك ، عندئذ ستحصل عليها .. هذا هو السبيل الوحيد للحصول عليها » ؛
المناضل الشهيد
مالكولم ايكس

كثيرا ما يقارن الوجود الاستيطاني الصهيوني في فلسطين بالوجود الاوروبي الاستيطاني في افريقيا (روديسيا وجنوب افريقيا) . وقد نشرت « الهدف » مؤخرا (العددين ٩٠ و ٩١) بحثا حول موضوع التشابه بين النظام الصهيوني والنظام العنصري في جنوب افريقيا ، ان اوجه الشبه ، بالطبع ، حقيقية ووافحة ، ولكن هنالك بعض نواحي الاختلاف المهمة التي من الضروري بحثها لتكتمل الصورة : فالانظمة العنصرية في افريقيا ، مثلا ، لا تسعى الى تشريد المواطنين الاصليين واقراغ البلاد منهم ، بل الى تحويلهم الى مصدر عمل رخيص ، بينما كان هدف الحركة الصهيونية منذ البداية « تهويد » فلسطين تحت شعار « جعل فلسطين يهودية كما ان انكلترا انكليزية » . هذا بالاضافة الى ان الاستيطان الاوروبي في افريقيا ليس مرتبطا بحركة ايديولوجية منظمة كالحركة الصهيونية التي لها تاثير عالمي فعال .

اما وجه الاختلاف الاخر ، وهو المهم ، فهو ان الانظمة العنصرية الاوروبية في افريقيا لا تتمتع الا بتاييد القوى الرجعية المغرقة في رجعيتها ، ومهما قيل عن النعرات العنصرية في الغرب فانه قل ان يجرؤ على التصريح بتاييد سياسة ايان سميث في روديسيا او سياسة «الابارتيد» في جنوب افريقيا ، لان تاييد هذه الانظمة شيء « غير محترم » في الغرب ، الا في الاوساط اليمينية المتطرفة .

اما الحركة الصهيونية وتجسيدها الفعلي ، اسرائيل ، فانها يتمتعان بتاييد من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، وبعبارة اخرى ، بينما لا يمكن العثور على يساري ، او حتى ليبرالي ، في هولندا او انكلترا يؤازر ويعطف على نظامي الحكم في روديسيا وجنوب افريقيا ، بصورة غلبة على الاقل ، فانه من الاشياء الاعتيادية ، لا بل البديهية ، ان يكون « اليساري » في اميركا وجميع البلدان الاوروبية مؤازرا للصهيونية والاحتلال الصهيوني ، هنالك من يعتقد ممن ان بعض التحول قد حصل في الاونة الاخيرة على